تذكير الصغير

بأهمية توقير الكبير

كتبه

أبو المنذر عمار الحوباني

وفقه الله

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

أما بعد:

فقد جاء عن عبد الرحمن بن عوف -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ-، وهو يذكر خبر قتل أبي جهل يوم بدر، قال: فَإِذَا أَنَا بِغُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا فَقَالَ: يَا عَمِّ، هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي؟.... إلخ، ثم قال الآخر مثله... وذكر قصة مقتله. والحديث رواه البخاري، برقم: (٣١٤١)، ومسلم، برقم: (١٧٥٢).

وعن أبي أمامة -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- قال: صَلَّيْنَا مَعَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الظُّهْرَ، ثُمَّ خَرَجْنَا حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَوَجَدْنَاهُ يُصَلِّي الْعَصْرَ، فَقُلْتُ: يَا عَمِّ، مَا هَذِهِ الصَّلَاةُ الَّتِي صَلَّيْتَ؟ قَالَ: الْعَصْرُ، وَهَذِهِ صَلَاةُ رَسُولِ اللهِ ---ـــــ الَّتِي كُنَّا نُصَلِّي مَعَهُ. متفق عليه.

شاهدنا من هذين الحديثين:

قوله: يَا عَمّ، وهناك غيرهما مما يدل على أصل قول يا عم لمن هو أكبر سنا، وتوقير من كان من أهل الفضل والصلاح.

قال الحافظ ابن حجر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: وَقَوْلُهُ لَهُ: يَا عَمُّ، هُوَ عَلَى سَبِيلِ التَّوْقِيرِ، وَلِكَوْنِهِ أَكْبَرَ سِنًّا

مِنْهُ، مَعَ أَنَّ نَسَبَهُمَا مُجْتَمع فِي الْأَنْصَار لَكِنَّهُ لَيْسَ عَمه عَلَى الحَقِيْقَةِ. وَاللهُ أَعْلَمُ اهــ فتح الباري (٢/ ٢٨).



وقال الإمام النووي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: وَهَذِهِ عَادَةُ الْعَرَبِ فِي آدَابِ خِطَابِهِمْ، يُخَاطِبُ الصَّـغِيرُ الكَبِيْرَ بيا عَمّ احْتِرَامًا لَهُ، وَرَفْعًا لِمَرْتَبَتِهِ. اهـ شرحه على مسلم (٣/ ٢٠٣).

✍: قـلـت

إن هذا الخلق خُلقٌ نبيل، وخصلة محمودة، أنصح وأخص بها إخواننا أهل السنة، بأن يعودوا أبناءهم عليها في التعامل مع من هم أكبر منهم سنًا، سواء ممن هم في مقام آبائهم، أو من كانوا من أهل الفضـل من مشـايخ ومعلمين، فإن مما يشـين الولد في سـن الصـغر أو في بداية شـبابه وخاصـة إن كان من أبناء المشـايخ والدعاة وطلاب العلم وأهل الخير ألا وهو مناداة شـيخه باسـمه مجردا دون اسـتعمال لفظ يا عم، أو يا شـيخ، أو يا أسـتاذ، أو يناديه بكنيته يا أبا فلان، وغير ذلك مما يُعاب عليه في النفس، ويستقبحه السامع، وقد يستحي منه المنادى، وخاصة إن كان ذلك أمام العوام، والله المستعان.

فإننا نرى أن هذا ينبغي أن يضبط وخاصة بين طلاب العلم، فإنه من كمال الأدب، ومن الخلق الحسـن الذي يربي الولد عليه منذ الصـغر، فيعنى به؛ لأنه من جملة الأخلاق الحسـنة التي تكسـب المرء وقارا و أدبا، وهذا يعود إيجابا على الوالد المربي، فإنه من أدّبه وهذبه، فيُذكر بالخير بين الناس؛ لما يرون من أخلاق ولده الحسنة.

وقد رأيت وسمعت ما دعاني للكتابة، وحز في نفسي أن بعض الأبناء في مجالس بعض الشيوخ

أو عند اللقاء بالمدرسين أو بأهل الفضل ينادي بـ(يا فلان)، و(يا أخ)، أو (بلقبه).... الخ؟!

دون اســتعمال للفظ فيه توقير له، وثناء عليه، وإنزاله منزلته، مما يثير العجب!! ويجعل السامع يشعر وكأن ذلك الولد بمرتبته في الفضل، وفي سن مقارب له، أو أكبر منه، مع أنه في الواقع يكون في بداية بلوغه، أو حديث عهد ببلوغ، أو يكون حديث عهد بطلب علم، أو هو طالب لا يزال في مرحلة التحصيل للبدائيات، وغير ذلك، فهو يتعامل معه وكأنه بمرتبته!!

بينما من يخاطبه في مقام والده، وكبير سن، أو شابت لحيته في العلم والخير.

ومن سلبيات هذا الخلق عند الأبناء أنه قد يحصل أمام العوام، فيضعف هيبة ذلك الشيخ، أو طالب العلم، والداعي إلى الله، فيصــير العامي لا يقدر حملة العلم، وهذا يجعله يزهد في الأخذ عنهم؛ لظنه أنهم ليسوا أهلا لذلك، وقد لا يكون سوء هذا التصرف من الولد ناتجا عن كبر وتعالي وتعمد الإساءة، بل قد يكون ولدا صالحا حافظا للقرآن أو بعضه، أو مجتهدا في العلم والطلب، ولكن ما يحصل له قد يكون جهلا منه، أو غفلة، أو عن قصور من أبيه، ومن يربيه لم يعلمه آداب التعامل مع الآخرين، وأهمل في توجيهه، وقد يكون الســبب أيضــا بيئة الأبناء أصحاب الفوضى والخلطة بهم إلى غير ذلك من الأسباب التي تكون سببا لاكتساب الولد هذا الخلق الغير طيب.



الخــلاصــة

مما ينبغي علينا يا إخواني طلاب العلم أن نضــبط هذه الآداب لأولادنا، وليكن لنا معهم

وقفات في تربيتهم على دقائق الأمور، وخاصة فيما يتعلق بالمعاملات مع الآخرين، وأن يولي كل منا لهذا الجانب اهتماما كبيرا.

هذا وينبغي أن لا نغفل عن نقطة مهمة وهي: أن الوالد قدوة لولده، فبعض الآباء - هداهم الله- يتخاطبون مع من هم أكبر منهم سنا، وأكثر منهم علما، بتلكم الطريقة مما يجعل الولد يظن أن هذا الفعل لا بأس به، فإن والدي يخاطب الجد الفلاني أو الشيخ الفلاني باسمه وهكذا..

فلذلك عليكم أيها الآباء - بارك الله فيكم - بإصلاح أنفسكم أولا؛ ليصلح أبناؤكم بصلاحكم، ثم قوموا بدور التوجيه والنصح والإرشاد لهم بطرق طيبة يُقبلون عليها محبة ورغبة في إرضاء الله، وليس خوفا فقط من وجودكم عند تعاملهم مع الآخرين، وترغيبا لهم في حديث عبد الله بن عمرو -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا- أن النبي -صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ- قال: «إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا». رواه البخاري، برقم: (٦٠٣٥)، ومسلم، برقم: (٢٣٢٣).

وما جاء عَنْ جَابِرٍ -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-، أَنَّ رَسُولَ اللهِ- صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَعَلَىٰٓآلِهِوَسَلَّمَ- قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: «الْمُتَكَبِّرُونَ». رواه الترمذي، برقم: (٢٠١٨)، بإسناد حسن.

فتعود ابنك على الأخلاق بتحفيزه لما له من عظيم الأجر والجزاء، فيزداد حبا في اكتساب الأخلاق الحسنة، بل وينافس بها غيره من أقرانه، فكثير منا ربما عايش بعض الأبناء، وكيف يذكرونهم بالذم، و عدم الاحترام، ويصفون أباءهم بأنهم لم يربوهم، وربما تحرجوا نصح

آبائهم، وإذا نُصح الولد بادره بسوء الخلق، والله المستعان.

✍ فيا أخي طالب العلم، لا تعرض نفسك وولدك للطعن، بأنك لم تُحسن التربية، سواء في هذا الباب، أو في غيره من المعاملات مما هو من طاعة الله، أو مما هو في التعامل مع الناس.

* وهذه نصيحة عامة لنا جميعا أن يتدارك كل منا أبناءه وبناته، ويتعاهدهم بالنصح والتوجيه، ويجتهد في غرس الأخلاق الحسنة؛ ليجني ثماراً يانعة في الدنيا والآخرة*



وهنا ننبه على أمر وهو:

قد يقول قائل: ولدي ينادي من هو أكبر منه سنا باسمه مجردا؛ لأنه ليس شيخا ولا مدرسا ولا معلما له، أو لا يعرفه جيدا...الخ

✍أقول: من الخلق الحسن أن يناديه بـ(يا عم) لو كان في مقام والده، أو يا أبا فلان إن لم يكن كذلك... الخ

والكلام في هذا -أعني به في تعاملات الأبناء مع أهل السنة- أما مع العوام فجميل أيضا أن ينادى من هو في مقام أبيه وجده بـ(يا عم)، أو (يا جد) أو إذا كان من أهل المهن فمثلا: (يا طبيب)، و(يا مهندس)، و(يا أستاذ)، ونحو ذلك، والبنت تنادي من في مقام أمها (يا خالة)، أو (يا عمة)، أو (يا أستاذة)، ونحو ذلك بحسب ما تعارف عليه الناس عرفا، وقد رأيت بعض العوام أهل الأدب منهم من يزجر ولده إن نادى من هو أكبر منه سنا باسمه تأديبا له، بل وسمعت من يقول لولده: نادِ من تراه من أهل العلم بـ(يا شيخ)، و(يا فقيه) ونحو ذلك،

ويعلمون الأولاد أن ينادوا من يكبرهم بـ(يا عم فلان) احتراما له، فهذا واقع ملموس وجدناه بين العوام، فجزاهم الله خيرا.

فالأخلاق الحسنة ينبغي أن يعنى بها أهل السنة، وطلاب العلم قبل الجميع، فهم حملة الدين، والدعاة إليه، فلابد من التخلق بالأخلاق الحسنة، وتهذيب نفسه عليها، فإنه محط أنظار ممن يحب الطعن والتقليل من شأن الدعوة السلفية الصحيحة، فلا ندع لهم ثغرة للطعن فيها، ونتسلح بالأخلاق الفاضلة التي دعانا الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- إليها، ولنتذكر حديث النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- حينما أخذته خديجة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- إلى ورقة بن نوفل، فقالت: له تأدبا واحتراما: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ رواه البخاري، برقم: (٤)، ومسلم، برقم: (١٦٢)، عن إمنا عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-.

ففيه حسن المخاطبة من خديجة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، وفيه أن من خلق الكبير مع الصغير أن يلاطفه بألفاظ حسنه، ويناديه بما يشعر بالثناء والاهتمام لأمره، فهذا يشجع الولد كثيرا إن صدر من أهل الفضل.

الشاهد: أن خديجة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- ذكرت صيغة طيبة في كيفية مخاطبة من هم أكبر منها سنا، وأيضا توقيرا لزوجها، فلم تجرده بذكر اسمه، فجمعت بين احترامه وتوقيره في نفسه ومع غيره -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-.



❀ *ختاما*: ❀

أُذكر الجميع بما جاء عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: جَاءَ شَيْخٌ يُرِيدُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فَأَبْطَأَ الْقَوْمُ عَنْهُ أَنْ يُوَسِّعُوا لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا». رواه الترمذي، برقم: (١٩١٩)، وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (١/ ٣٤٩).

وجاء عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ». رواه أحمد في مسنده، برقم: (٢٢٢٤٨)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الترغيب (١/ ٢٤).



أبناء أهل السنة الأصل أنهم على خير وعلى خلق حسن في هذا الباب

وهذا من فضل الله، وهم أولى من يطبقون هذه الأخلاق، ونحن نراها واقعا في الكثير من الأبناء؛ لأنهم يفقهون ما جاء عن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ». رواه أبو داود، برقم: (٤٨٤٣)، وحسنه العلامة الألباني في صحيح الترغيب (١/ ٢٣).

هذا هو الأصل فيهم، وإنما هذه سطور لا بأس فيها من التذكير، وهي من باب استمرار

النصح، فإن ديننا قائم على ذلك، فمن قصر فليصلح، ومن كان محسنا فليستمر.

وما أجمل ما قيل:

وَيَنشَأُ ناشِئُ الفتيان عَلى ما كانَ عَوَّدَهُ
وَما دانَ الفَتى بِحِجىً يُعَلِّمُهُ التَدَيُّنَ أَقرَبوهُ

*وإني لأعتذر لطول المنشــور، ولكنه للأهمية فكان لابد من ذلك، وإلا فالأدلة في هذا الباب كثيرة جدا، وإنما أشرت لبعضها([1])

ونسأل الله التوفيق والسداد لنا ولأبنائنا وبناتنا، وسائر أبناء وبنات المسلمين.

والحمد لله رب العالمين.

وكتبه/ أبو المنذر عمار الحوباني غفر الله له

في تاريخ: ٤/ ربيع الآخر لعام (١٤٤٤) من هجرة النبي -صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ- محافظة: حضرموت - سيئون.

([1]) ثم بحمد الله، بعد ذلك أضفت إلى هذا المنشور ما كان من بابه، وجعلته في رسالة مستقلة بعنوان: تذكير بأهمية الحترام والتوقير وهي مطبوعة منشورة.